الداء والدواء

ما من صناعة يتباين فيها اعتقاد الناس كصناعة الطب وما من رجل يركن اليهِ مرةً ويُخشى منهُ أُخرى كالطبيب فالصائغ تأتيهِ بالذهب والفضة ليصوغها لك اقراطًا واساور وما اشبه وانت على ثقة انها تكون بالشكل الذي تختارهُ. والبنّاء ترسم لهُ شكل البناء فيبنيهِ طبق الشكل تمامًا. والدهّان تختار له اللون المطلوب ليدهن بيتك بهِ فيدهنهُ فيخرج كما انتظرت. والناس متساوون في اعتمادهم على الصنّاع اي ان ثقة زيد بالصائغ والبنّاء والدهّان لا تقلّ عن ثقة عمرو وبكر. واما الطبيب فمن الناس مَن يثق بهِ اشد الثقة ومنهم من لا يثق بهِ ابدًا وما ذلك الاّ لأن نتائج اعمالهِ غير معلومة في كثيرٍ من الاحيان. فانهُ قد يعالج اخف الادواء فلا ينجع فيها العلاج وقد يشفي اعضل الامراض بغير دواء. وهذا هو السبب الاكبر لما نراهُ من تباين الآراء في حقيقة الداء والدواء واختلاف الناس في فائدة صناعة الطب واعتماد جانب كبير منهم على الدجّالين والمشعوذين

ثم ان الناس يتباينون في قوة الاعتقاد فمنهم من يصدّق كلّ شيء لغير دليل او لاقل دليل يقام عليهِ ومنهم من لا يصدّق شيئًا ولو اقمتَ عليهِ الف دليل. وهذا ما يقوي ثقة البعض بالاطباء ويضعف ثقة البعض الآخر. ومرجعهُ الى طبع الانسان لا الى وسائط الاقناع فكم من مرَّة ذكر الثقات اقتدار احد الناس على شفاء مرض من الامراض بهذا الدواء او ذاك وهم واثقون بما يذكرون غير متعمدين خداع احد. وغيرهم ممن يرى الشفاء المذكور وفعل تلك الادوية لا يرى فيها شيئًا غير عادي او لا يرى الشفاء المزعوم بهِ. وكم من دواء شهد لهُ جماعة من خيرة الناس وقالوا انهم جرّبوهُ في انفسهم او في ذويهم ورأوا منهُ الشفاء العجيب ثم جرّبهُ غيرهم فلما يرَ كما رأوا ولا شاهد شيئًا مّما ذكروا. ويكون مرجع ذلك كلهِ الى طبع الانسان من حيث كونهُ قريب الاقتناع او بعيدهُ والى درجة تثقيف عقلهِ واتساع اختبارهِ

والاطباء انفسهم مختلفون اختلافًا عظيمًا في فعل الدواء وهم منقسمون الى فرَق كثيرة والسبب الاوضح لاختلافهم ان بعض الامراض يشفى من نفسهِ اي يشفى بغير الوسائط التي يستخدمها الطبيب لشفائهِ فيظن ان الشفاء نتج عمّا استعملهُ من العلاج. فاذا اتفق ان طبيبين عالجا شخصين مصابين بمرض واحد بعلاجين مختلفين وشفي الشخصان معًا نسب

كلٌّ من الطبيبين الشفاء الى علاجهِ والشفاء حاصل بغيرها

واختلاف الاطباء قسم نوئهم ولكنهُ لم يضعف عزيمتهم بل زادهم بحثًا وتنقيبًا . وما مثل اختلاف العقول لجلائها على حد قول مَن قال

انَّما المرء مثلما السيف يصدا عقلهُ ساكنًا بلا اعمالِ
يصدأ السيف بالخباء ولو كان شديد الصقال حدَّ النصالِ

وسوف يتفق جلّتهم على الحق اليقين لانهُ واحدٌ ويعتصمون بطرق العلاج التي تساعد الطبيعة على التخلص من الامراض

والمَرَض عَرَض يطرأ على الجسم ضعفًا غير محتشم والجسم يحاول التخلص منهُ بالتي هي احسن او توفيق نفسهِ لهُ . وقد حدَّ بعضهم الحياة بانها "الاستمرار على توفيق احوال البدن الداخلية على الاحوال الخارجية" فاذا عجز الجسم عن مقاومة الطوارىء او عن توفيق نفسهِ للاحوال الخارجية فهناك المرض والموت . وشأن الجسم الحي من هذا القبيل شأن شجرة انتابتها الزوابع ومرَّت بها السيول وتعاقبت عليهـــا حمارة الحرّ وصبارة البرد فان قويت على مقاومتها وتوفيق نفسها لها اي انها ثبتت ضد الرياح او مالت معها ولم تنكسر واذعنت جذورها للسيول ولم تنفصم ونخرت لحاؤها حتى لا يضرها البرد والحرُّ تغلّبت على هذه العوامل وبقيت حيّة والاَّ استؤصلت ويبست

والعوامل الخارجيّة قد لا تتغلّب على الجسم كلهِ بل على جانب منهُ فتموت بعض اعضائهِ فيبقى ضعيفًا فاقدًا بعض قوتهِ [illegible] ان تخلص الجسم [illegible] الميت او توقف [illegible] العامل [illegible] ذلك الحد [illegible] عند الاطباء

وان من الامراض ما لا يشفى ولو اجتمع على عدم كل [illegible] المرض لان ثمة [illegible] في البدن ويتغلب على القوّة الحيوية . وان ما يؤاف من الاعضاء بالامراض التي تشفى يبقى مأوفًا مدى الحياة . فاذا اصيبت احدى الرئتين فجهد الطبيب ان يوقف سير المرض ويمنعهُ عن الرئة الاخرى . واذا تقيّح بعض الكبد فالطبيب يسعى لتوقيف العضو عن البعض الآخر

ووسائط العلاج المعروفة حتى الآن لا تفي بمطاليب صناعة الطب ولا يشفى بها الاَّ قليل من الامراض . والجسم معرّض لالوف من الادواء التي لا يُعرَف دواؤها الشافي وغاية ما يفعلهُ الاطباء وقاية الجسم منها قبل حدوثها وتخفيف اعراضها بعد حدوثها

ومساعدة الجسم على التخلص منها . ولو عاش جميع الناس بحسب قوانين حفظ الصحة تماماً من حيث المأكل والمشرب والمسكن والراحة والتعب والتوقي من العوارض الخارجية لامكنهم ان يتحولوا من اكثر الامراض ان لم نقل منها كلها . ولم نصل الى هذه الغاية حتى الآن الاَّ ان تاريخ صناعة الطب في السنين الاخيرة يدلك على اننا قد قربنا منها كثيراً والمنتظر اننا نبلغ اليها بعد زمن غير طويل وذلك اولاً بتعليم الخاصة والعامة كيفية التوقي من الامراض . والتوقي يكون بالراحة والطعام الجيد والرياضة المعتدلة بحسب المرض وبالابتعاد عن السموم المرضية . والوقاية خير من الدواء في هذه الاحوال بل ان اهمال الوقاية اعتماداً على فعل الدواء مهلك للابدان ومثله مثل انسان لا يقي بيته من النار اعتماداً على ان في البلد شركة لاطفاء الحرائق فتطفئه اذا احترق . ولا مرية في ان باستور الشهير اكتشف علاجاً واقياً من الكَلَب ولكن التوقي من الكلاب الكلبي انجع من كل علاج مهما كان نوعه

وانتشار العلوم الطبيعية والفسيولوجية في مدارس الصبيان والبنات كافل بارشاد الناس الى كيفية التوقي من اكثر الامراض وقد ظهرت نتيجة بالاختبار فقد قلَّ المرض والموت وطال متوسط العمر في البلدان التي سبقت غيرها الى نشر هذه العلوم في مدارسها . وليس على بقية البلدان الاَّ ان تقتدي بها . ومتى فهم الناس نواميس الطبيعة جيداً وساروا على هدى في استخدامها وتوفيق انفسهم لها يقلُّ المرض ويعمر اكثر الناس العمر الطبيعي ويبلغون سن الشيخوخة اقوياء الاجسام ثم يموتون من الشيخوخة والعجز

ومهما توقى الناس من الامراض لا بدَّ من ان يبقى مجال واسع للطبيب لان الاحياء التي تنازع الانسان الحياة كثيرة لا تحصى وهي تتغير طبعاً او تختلف نوعاً قرناً بعد آخر فقد كان وقت لم تُعرَف فيه الهيضة ثم عُرفت وانتشرت وفتكت بالناس فتكاً ذريعاً ولا يبعد ان تنقرض كما انقرض الموت الاسود والطاعون من قبلها وتنتشر اوبئة أخرى لم تكن معروفة . وعلى الانسان ان يكون متأهباً لها فيدرس طبائعها حالاً ويقي نفسه منها

وجملة القول ان بدن الانسان معرَّض لادواء كثيرة وهو نفسه يحاول التغلب عليها إما باتقائها واما بمقاومة فعلها . والطبيب يساعده على ذلك . واكبر مساعد له على معرفة اتقائها درس نواميس الطبيعة ولاسيما النواميس الفسيولوجية